عياض بن عاشور،
الشاعر الحر

قد يصعب اختزال المسيرة الوطنية والدولية لرجل القانون البارز، والأستاذ الجامعي التونسي، والعميد الأسبق لكلية الحقوق بتونس عياض بن عاشور، أو حصر ألقابه ومهامه والتكريمات التي نالها. لكن مما لا شك فيه، أنه ظلّ حاضرًا بفعالية ووعي في كل ما يتعلّق بالشأن العام، سواء من خلال رئاسته للهيئة العليا لتحقيق أهداف الثورة والإصلاح والانتقال الديمقراطي، أو من خلال أعماله الفكرية التي تعلّقت بالشأن العربي في علاقته بالإسلام، وبالقيم الكونية، وبالثقافات الأخرى. وهذه التساؤلات بالذات، تجد صدى لها في ديوانه الشعري الأول، قصائد حول الحرية، الصادر هذا العام عن منشورات AC بتونس، حيث نكتشف جانبًا آخر من هذا الرجل الإنساني بكل ما للكلمة من معنى، والشاعر الذي يرى في الحرية معنىً للوجود، لا مجرّد شعار.

الغزالة : بداية كيف أمكن لأستاذ قانون بارز مثلك أن يقرر نشر ديوان شعري؟

الغزالة : جاءت صياغة الديوان باللغتين العربية والفرنسية وآثرت أن تتضمن صفحاته النصّين معا كل بواجهة الآخر، لم تكن ترجمة حرفية وإنّما في نحت جديد بين الحروف. لكن سؤالي هنا عن اللغة التي نظّمت بها هذه الأشعار.

عياض بن عاشور: في الواقع، يجب أن تبدأ بالسؤال عن الطالب الشاب الذي كان يهتم بالأدب والفلسفة، وتستفسر عن السبب الذي جعله يختار دراسة القانون والاختصاص فيها. الحقيقة أن الأدب كان دائمًا شغفي الأول، لكن الحياة اختارت لي مسارًا مختلفًا، وعندما راجعت أرشيفي الشخصي، عثرت على قصائد تعود إلى سنة 1961، وكنت حينها كنت في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمري فقط. بعد أكثر من خمسين عامًا، قررت أن أراجع العديد منها، وكتبت أشعارا أخرى في السنوات الأخيرة خصوصًا أثناء جائحة 2020. ففي سياق استفسارك إذن أود التلميح إلى أنّ الطموح المشترك بين الشعر والقانون هو استهداف الإنسان، من خلال الفن والقانون. مجموعة الأشعار التي بين يديك الآن اطلع عليها أفراد من عائلتي وبعض المقربين وهم من شجعوني على نشرها لذلك لم يكن الأمر من ضمن مخططاتي، لكن شقيقتي «رابعة» التي درست الأدب المقارن وناقشت أطروحتها حول «الاستحواذ الثقافي والإبداع الأدبي» (في مقارنة بين جيرار دو نيرفال وأندريه ماكين) كانت السبب في اقناعي بضرورة نشرها. وبالفعل، حكمها كان حاسما بالنسبة إليّ والآن، أواصل العمل على نشر المزيد من القصائد، وأتمنى قريبًا أن أتمكن من إصدار كتاب آخر يتناول مواضيع مختلفة.

عياض بن عاشور: في الواقع نظمي للقصائد كان باللغتين. جزء منها كتب أولاً بالعربية ثم ترجم إلى الفرنسية، بينما أخرى كُتبت بالفرنسية أولًا ثم أعدت صياغتها بالعربية. ولم أجد صعوبة في ذلك نظرا لخلفيتي اللغوية والثقافية المزدوجة. فمثلا قصيدة كتاب الشفاء التي تتصدر الديوان كُتبت أولا بالعربية ثم حولتها إلى الفرنسية وكذلك قصيدة غـــــزّة. لكن التحدي الحقيقي يكمن في كيفية الحفاظ على روح القصيد بلغته ورموزه وإيقاعه سواء في التعبير عن الفكرة أو في اختيار أسماء الأشخاص أو الأماكن والأشياء، لذلك منحت نفسي حرية كاملة في إعادة نظم كل شعر بما يحفظ جماله وصدقه في كل لغة على حدا. بل أنّ إعادة الصياغة كانت أحيانًا أكثر تعقيدًا وتأخذ مني وقتًا أطول من كتابة النسخة الأصلية، ففي قصيدة صديقي غاريبلدي كان تحويلها من الفرنسية على العربية صعبا جدا وهذا العمل يتجاوز الترجمة، لأنه يدخل في صميم «إعادة الإبداع»، وهو ما لا يقع ضمن صلاحيات أو مهام المترجم العادي، الذي عادة ما يكون ملزمًا بالوفاء للنص الأصلي.
من خلال تجربتي في نظم الشعر، اكتشفت أن القافية والإيقاع في الشعر أسهل باللغة العربية منه بالفرنسية، وذلك لما تتميز به العربية من مرونة في الاشتقاق انطلاقًا من الجذر، ولبنيتها الصوتية الغنية التي تمنحها طابعا إيقاعيا فريدا. ولو أردت أن أُجري مقارنة، لقلت: العربية لغة تُغنّى، بينما الفرنسية لغة تُفكَّر بها.

وأضيف أن من السمات التي تميز هذا الديوان هي أنني لا أتردد أبدًا في إدخال مصطلحات عربية داخل النصوص الفرنسية، مثل مصطلح حرام وبراق وقدر ومعراج وحتى كلمة ديوان. نجد ذلك في قصيدة كتبتها بالفرنسية بعنوان «La divine incantation»، والتي لها مقابل بالعربية يحمل عنوان «لِنَعبُدكِ يا حرية»، وكذلك في قصيدة أخرى بعنوان «Liberté, attends voir»، والتي تقابلها بالعربية: «حريّتي، انتظري».

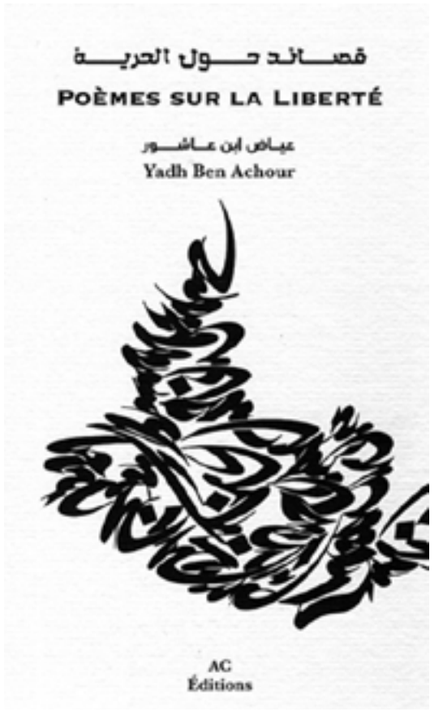

الغزالة : في حديثك عن الحرية، اخترتَ الكتابة بالشعر الحر. هل كان هذا نوعًا من التحرر من قيود الشكل؟

عياض بن عاشور: نعم، هو شعر حر، لكن ليس بحرية مطلقة. فالشعر لا يقوم على الوزن أو القافية وحدهما-تلك القواعد التي صاغها مؤسس علم العروض الخليل بن أحمد في القرن الثامن- بل على قاعدة أعمق وهي النظم الإيقاعي. ما يهمّني، إلى جانب الإلهام والأسلوب والفكرة، هو أن تُغنّي القصيدة نغمة صافية وألاّ تكون نشازًا. فكما أن القصيدة تحمل روحا، ينبغي أيضا أن تمتلك «صوتا»... أحيانًا يكون التخلي عن القافية، إذا اقتضى المعنى أو الاحساس، بابًا إلى قدَر أكبر من المرونة والجمالية. أما الوزن، فأراه أكثر فيً يُعده الإيقاعي. ومن هذا المنظور، يبدو لي أن الشاعر، كبقية البشر، يشبه الطير في طبيعته، في حاجته إلى الغناء لا إلى الخطابة. ولعلكم تلمسون هذا المعنى أكثر في قصيدة «العصفور الأخضر» (L'oiseau à l'églantier).. لذلك وجوابا على سؤالك، أجل تحررت من الشكل، لكن الشعر، رغم كل شيء، يجب أن يبقى شعرًا.

الغزالة : حين نقرأ ديوانك، لا يسعنا إلا أن نُصغي لموسيقى الأبيات، بل لوقع أشبه بسحر الانشاد في بعض المواضع. ومَع ذلك، لا يخفى أنه عمل نابع من عقلية موسوعية، مشبعة بالثقافتين الغربية والشرقية، بل وبتأملات من أقصى الشرق أيضاً. هل هذا صحيح؟

عياض بن عاشور: ما تسمّونه تبحّرًا في المعرفة، أفضّل أن أراه تعبيرا عن انعتاق الفكر، وانفتاحا على تعدد العوالم والثقافات. الشعر عندي ليس مخزنًا للمرجعيات، بل نافذة تطلّ على أفق واسع، بلا قيود ولا حدود. هذه الحرية الفكرية هي ما حاولت تجسيدها صراحة في قصيدة كتاب الشفاء التي عبرت فيها عن تمردي على القيود الفكرية والدينية، باحثًا عن حرية مطلقة في الفكر، دون أن التقيد بعقيدة أو مذهب واحد.»

الغزالة: ناتي إلى عنوان الديوان وهو قصائد حول الحرية. العنوان جاء بسيطا، غير أنّ معنى الحرية فيه جاء شاملا لعدّة تصورات كالانعتاق من القَدَر المرسوم وحرية التوجّه نحو معارف أخرى ونحو أديان وثقافات مغايرة، وحرية الثورة التي قادت الشعوب. ولكنها حرية مكلفة جدا أيضا.. مفتاح الشقاق (ص.47)، كما وصفتموها، والتي كانت سببا في إحراق كثير من المفكرين بنار الرفض والإقصاء.

عياض بن عاشور: هذا صحيح. الحرية هي مفتاح الشقاق بين الحياة وجراحها•. هذا ما عبّرت عنه في قصيدة الأرمدة البالية في النسخة العربية. هي التي تخلّصنا من الجراح الناتجة عن الأفكار الخاطئة، والتعصّب، والظلم، والقسوة، واحتقار الآخر، والبؤس، والخطاب الشعبوي المضلل أو ما يسمى بالديماغوجيا. وفي سبيل تضميد هذه الجراح، قُدّمت العديد من التضحيات، وأُهدرت الدماء والأرواح. وبالنسبة لي، قصيدة غزّة تعبّر بعمق عن هذا الجرح، وتحوّل الألم إلى موقف، والصوت إلى صرخة وعي في وجه القهر.
لكن يوجد الجانب المضيء أيضا. فالتاريخ وثّق لنا انتصار الحرية في العديد من الأزمان مثلما أكدت على ذلك في قصيدتي التي تتناول لوحة يوجين دي لاكروا الزيتية الحرية تقود العالم. أنا أؤمن أن اللحظات التي تكون فيها الحرية مهددة بدرجة أكبر، كما هو الحال في عالمنا اليوم، هي بالفعل الأنسب للدفاع عنها والإيمان بها.

الغزالة : ألهذا إذن كنا نلتمس التفاؤل الحقيقي الذي تتّسم به أشعارك؟ هل يمكنك أن تقول كما قال بول إيلوار "وبسلطان كلمة واحدة... أبدأ حياتي من جديد... أنا ولدت لكي أعرفك... لكي أسمّيك " يا حريـــة".

عياض بن عاشور: أجل وبكل تأكيد أقولها. وفعلت ذلك في مستهل الديوان، وفي قصيدة نيتشه ونعمة الحرية حيث أستحضر شخصيات مثل غاندي، وبول إيلوار، وأبو القاسم الشابي، ومحمد الصغير أولاد أحمد (تمّ ذكره في النسخة العربية فقط). لكن لأعود إلى الجزء الأول من سؤالك ففي الحقيقة، لا أظن أن ما يطفو من إحساس في هذه النصوص هو التفاؤل بالمعنى البسيط للكلمة، وإنما هو توصيف للواقع، بل هو أقرب إلى إدراك حادّ للحقيقة إنسانية: الحرية، إما أن تُحَب أو أن تُكرَه. من يخشون التغيير، ومن يفرضون الوصاية على العقول، يكرهونها لأنها تُقوّض يقينهم، وتزلزل سلطتهم، وتكشف لهم غطرستهم. بينما الإنسان الذي يؤمن بكرامة العقل والضمير، فلا يرى في الحرية تهديدًا بل يرى فيها جوهر الحياة، وسلاحا في وجه الظلم. الأمر في النهاية يرتبط بالقيم التي يحملها كل واحد في داخله. إذا كان الألم هو ثمن الحرية.. فالحرية بذاتها باب الخلاص منه، فهي جوهر الصراع الدائم بين المعاناة والرغبة في التحرر.